عن البورجوازية

بقلم غسان سلامه

سألني صديق : ما هي البورجوازية ؟

قديم هو السؤال ، اليوم • لم تلفظه ذاكرتي بعد ، أبسبب صداقتنا المتينة ، أم بسبب أهمية السؤال نفسه ؟

هذه ، من بُعد ، بعض افكار ، له ولغيره •

١ ـ الطريق الى الكلمة

في احاديثنا ، وغالبا على لساني ، ظهرت الكلمة فجأة • وكان اختياري اليسار وطنا مردّه الى تطوري الشخصي العميق الذي لم تؤثر فيه الاعمال التبشيرية • هذا ما حاولت افهامه العديدَ من الذين سألوني مستجوبين ، وبعضهم قال انه يحبني ، وانتماءاتي ومهنتي كما كنت امارسها ودروسي الرسمية ما كانت لتؤهلني لالتقاط كلمة «بورجوازية» أم لاعتماد الاتهام ـ الصفة « بورجوازي » في اجتماعات حزبية أم ندوات يسارية وكنت عنها غريبا • ولم اكن ممن يتغذون فكريا بالصحف والمجلات الاجنبية لكي اطبق نظريتها وآراءها الباريسية على بيروتياتنا بسهولة او لكي استلهم عباراتها وأتنعم بمفرداتها • ودام بحثي عن مأوى يساري سنوات وما زال حتى اليوم ، رغم تعمقه المتتابع ونضجه البطيء ، غير مركز بصورة اكيدة • (لست شيوعيا صالحا ، ولا اعتقد ان بامكاني ان اكون)• ولم تسقط الحقيقة اليسارية عليّ مرة واحدة كالحجر على رأس من يجتاز شارعا او كالثمرة على رأس فلاح ، مسببة الدوار ومحدثة الخلخلة • تغلغلت فيّ (أرى مستجوبي الذي مهنته استجوابي يضيف « كالسم » ، وارى مستجوبي الذي يقول انه يحبني يضيف التشبيه نفسه ، ولكن وراء ظهري لانه يحبني) على مهل ودون استعجال مع كل خلل في التركيب اللبناني ومع اختراق كل طائرة اسرائيلية الاجواء المسماة وطنية • ونما ايماني شيئا فشيئا ، ايمان بأن شقلبة الادوار غير استبدال الممثلين •

وكانت نقطة انطلاق اتجاهي اليساري، كالكثيرين من مواطني ، اولئك الذين يعتقدون ان كلمات بسيطة كالكرامة والوطنية والمحبة ، ما افرغت تماما من معانيها • وطنية ، اي منبعثة من تساؤلات متتابعة ، جسيمة الخطورة حول الوطن وحول مصيره• ومرت طريقي كطريق الآلاف من امثالي ، طريقي لفهم ما يحدث في بيروت ، مرت في فلسطين او حيث كان يجب ان تكون • كان يحزنني الا يقاتل جيشنا رغم انني لم اشك يوما برغبته في القتال • لانه ان كانت مهنة الجندي التجند فان سبب وجود الجيش الدفاع عن الوطن • ولم يكن جيشنا ، رغم رغبته ، يدافع • وفهمت انه قرر له الا يدافع قدر الامكان• وقتها ما كان يؤنسني شيء قدر كلمات المستسلمين• كانوا يعطونني اجوبة مختلفة ، عديدة قدر ما هم عديدون ، عن تساؤلاتي • اليوم المحايدون الانعزاليون صاروا قلة نادرة فالموضة أمست عروبية بعدما استولى اليمين على مكّات العروبة • وبدأت كلماتهم تفقد شيئا فشيئا مفعولها التخديري علي • وبدأت أفهم •

افهم العلاقة بين النظام السياسي ، والاقتصاد الرأسمالي الاحتكاري والتكوين الطائفي البدائي · وبدأت اراقب الاقطاب الثلاثة هذه ، منفصلة احيانا واحيانا معا · فرأيت يومها ان هناك فئة من الناس تستفيد من وجود وتطور وتماسك الاقطاب الثلاثة · وكان « اكتشافي » كبيرا لانه حتى يومها كان اعتقادي المدرسي البسيط بانها مسائل مختلفة تماما الواحدة عن الاخرى · وعزز اكتشافي الجديد ما كانت هذه الفئة تبرز للمراقب من الدلالات اليومية · هذا رجل رأسمالي يحاول دخول اللعبة السياسية من باب البدائية الطائفية · وهذا رجل رأسمالي آخر يتحكم في الآن الواحد في بعض اللعبة الطائفية وفي بعض اللعبة السياسية · هذا رجل سياسة عتيق تراه يدافع بضراوة عن الطائفية معتمدا على الرأسمال والرأسمالية وعلى الطائفيين · وهذا زعيم طائفي يمنح سياسيا اصواتا ويمنعها عن آخر مفضلا صاحب الرأسمال على غيره · والرأسمالية توزع مغانمها على زعماء اللعبة السياسية واللعبة الطائفية معا · وليس من النادر ان تجتمع العناصر الثلاثة في تركيب عائلي واحد مما يعطيها قوة ورونقا وشراسة اكبر · وليس من النادر ان يجتمع الرأسمال والطائفية والسياسية في شخص واحد فيحظى بالوسيلة والبركة والمركز · وليس هذا الكلام من باب الاحاجي ·

ثم ان هذه العناصر بدت لي متماسكة الرؤيا الى قضايا عديدة ومسائل لا تحصى · وظهرت الفوارق بينهما من درجة الحواشي والفواصل · فما ان تبرز قضية اساسية ملحة حتى يجتمع الشمل في بوتقة واحدة · وكان اكتشافي الاخير ان اجتماع الشمل في آن واحد على صعيد المبدأ وعلى صعيد التعبير · فترى ارباب المجالات الثلاثة وقد جمعتهم لا دفاعات واحدة عن مكتسبات مشتركة فحسب بل ايضا لغة واحدة ، وتعابير واحدة ، ومفردات واحدة ، والحقيقة ان ارباب المجالات الثلاثة يعتمدون على مستسلمين وزبائن · وهؤلاء يؤلفون الحشد المصفق ، واصوات التأييد في الانتخابات والمطبوعات · وترى الحشد المصفق مستسلما لزعماء في المجالات المتكاملة المتماسكة الثلاثة · وطالما ان معظم شعبنا اتكالي منتظر الحقيقة من علِ ، صابر على ضيمه ، طالما انه بائع ضميره ، مؤجر مصيره ، مكلف غيره نبش قبره ، فان الحشد المصفق الممكن يكفي لعدد وفير من ارباب المجالات الثلاثة ·

ولكي يبقى الحشد المصفق الصابر وفيا في طاعته، متناسيا في تعتيره، فان ارباب الفئة الواحدة المسيطرة على الاقطاب الثلاثة ، يغذونه بشيء لم اكن اجد له تعبيرا مناسبا · فارباب النظام الرأسمالي الطائفي القبلي لن يرضوا بتاتا بان يقاسمهم غيرهم ما يعتبرونه لهم مكسباً ونفوذاً · هم يدافعون عن مواضعهم الفوقية دفاعا مستميتا · ولكن الحشد المصفق ما كان يبقى صابرا وفيا لو رأى الحقيقة هذه · لذلك فان الارباب ابقوا لحشدهم امكانية الوصول الفردي · وهكذا ارتضوا ان يقاسمهم المستزلمون ، ان لم يكن خيراتهم، فايديولوجيتهم (١)· هذه الايديولوجية بورجوازية ·

كلمتان للاسف غريبتان عن العربية ولكن تعريبهما اصبح شائعا · الايديولوجية البورجوازية هي الرابط الاقوى الذي يحل مكان الروابط التقليدية البائدة والعنصريات القبلية والعائلية والطائفية التي لم تعد تعطي بمفردها تماسكا مجتمعيا كافيا· والحقيقة ان الايديولوجية البورجوازية لم تتحكم بعد تماما بمختلف فئات الشعب اللبناني · بل انها انطلقت في مد لا يجهله علماء الاجتماع من المدن الى القرى(٢)

---

(١) **في الايديولوجية الالمانية** يحدد ماركس الايديولوجية بانها عكس الواقع ويشبهها بالعلبة السوداء التي تظهر فيها الصور الفوتوغرافية فتبدو لظاهرها وكانها قلبت رأسا على عقب · ربما كان هذا التشبيه من اجمل ما قرأت في ماركس ·

(٢) من هنا فكرة ماوتسي تونغ القائمة على « محاصرة القرى للمدن » لخنق الرأس مال المركنتيلي الذي يتغذى في مدن الساحل الصيني من فئات الرساميل الاستعمارية ·

وهنا اصل الكلمة الاساسي فالبورجوازية هي طبيعة الحياة في « البورج » اي في المدينة كما ظهرت في اوروبا القرون الوسطى • وتدخل البورجوازية القرى اللبنانية وقد شحنتها سيارات المرسيدس وكلسات النايلون وآرمات الكوكاكولا • كما حملها الى قراهم اولئك الذين احتلوا الاحياء البروليتارية في الدكوانة وبرج حمود دون ان يقضوا على شعرة معاوية التي ما زالت تربطهم بمسقط رأسهم • وهكذا تمتد الايديولوجية البورجوازية تحت ستار التقدم والمدنية الى قرانا وريفنا الذي حافظ حتى اليوم على بقايا من حياة قروية بعيدة عن السطحية التي تنشرها المدنية البورجوازية • كما امتدت الايديولوجية الجديدة (وهي جديدة وهي مستوردة اكثر بكثير من العقائد يا سيدي رئيس الحزب الفلاني) الى مختلف طبقات المجتمع في المدن المتوسطة كطرابلس وزحلة وصيدا وفي هذا الغول البورجوازي القبيح ، هذا التجمع الباطوني المقرف ، هذه الواجهات البراقة التي لم تعد تخفي الفقر والجوع ، هذا الوحش المسمى بيروت •

وللأسف لاحظت انني لست وحيدا في استعمالي الكلمة • فقد سبقني اليها كثيرون ، من هنا ومن هناك كما يقول الزعيم الفلاني الآخر • ولكن نسبة عالية من مكونات الايديولوجية البورجوازية وكأنها طريقة حياة فئة معينة من اللبنانيين تسمى آنا بورجوازية وآونة ارستقراطية ام صالونية • والحقيقة ان البورجوازية هى طريقة حياة تلون مجتمعا باكمله رغم ان مكاسبها المادية موقوفة للبعض القليل من ابناء هذا المجتمع • لذلك فيقتضي التوضيح بان البورجوازية طريقة حياة معاشة او مرغوب في عيشها • ومن هنا فان الفئة التي تعيش نسبة عالية من مكونات الايديولوجية البورجوازية تبدو كأنها مثل يحتذى لفئات تود ان تتمرس في طريقة العيش هذه دون ان تسمح لها امكاناتها بذلك •

٢ ـ كلمات عن نشوء البورجوازية اللبنانية

ان عدنا الى اصل الكلمة ، وجدنا ان البورجوازيين هم الذين في مدن القرون الوسطى كانوا من سكان بعض مدن اوروبا الاصليين ، وكانوا من جرّاء سكناهم ومن جرّاء قيامهم ببعض المهن المعينة ، تجارة وصرافة على وجه اخص ، يمتازون عن مواطنيهم بحقوق وافضليات • وهذه الى حد بعيد حال البورجوازية اللبنانية التي نشأت في المدن وبصورة اوضح في بيروت • والذي يميز بيروت هو تضخمها السريع بالنسبة الى المدن الاخرى في المنطقة • في القاهرة كما في دمشق اليوم مشاكل سكن ، ولكن توسع بيروت نسبيا لا يقارَن بأي تطور مدني في المنطقة • اليوم اكثر من ٥٥ بالمئة من سكان لبنان في هذه العاصمة الضيقة الممتدة من جل الديب الى الشويفات ، المسجونة بين الجبل والبحر •

عاشت بيروت الى حد ما حياة مدن البحر المتوسط في قرون مضت • فبعد المد العثماني حافظت بعض موانىء المتوسط الشرقية على علائق متينة مع الغرب أو بالاحرى مع موانىء غرب المتوسط ، مرسيليا وبرشلونة وجنوى وخصوصا البندقية ملكة المتوسط طوال قرنين • ومع انعدام وجود الدولة بمعناها العصري كانت هذه الموانىء تشكل وحدات مستقلة عن الارياف والقرى التي تحيط بها • وكانت تتحكم بهذه المدن ـ الموانىء اقليات غنية وبالواقع مكونة من العائلات المسيطرة على البحر ومن خلال البحر على التجارة مع الشرق •

وانتقلت طريقة الحياة هذه الى مدن شرق المتوسط حيث استوطنت اقليات غربية كبيرة • وبرزت مدينة الاسكندرية في القرنين الماضيين كمدينة بورجوازية كبرى وما زالت الى اليوم موطن البورجوازيين المصريين • وكانت هذه حال بورسعيد والى حد ما ، حال حيفا وبيروت وطرابلس التي

تأثرت بصورة اضعف بالمد الغربي لان اهميتها التجارية كانت اصغر ولانها كانت تتنازع البواخر كما ان التأثير العثماني كان عليها مباشرا قويا بينما تخلخلت علائق مصر مع الدولة العثمانية مذ قبل الفتح النابوليوني ·

واذا عدنا الى بيروت وجدناها صغيرة لا يصلها الا الفتات من خيرات الغرب الاستعماري المهتم بصورة اكبر بافريقيا الشمالية · ولكن تطورا اكيدا بدأ حوالي منتصف القرن الماضي وبدأت بيروت تأخذ شكلها الحالي كعاصمة لتوزيع الثقافة الاجنبية في المنطقة وذلك بافتتاح المعهد البروتستانتي ثم الجامعة اليسوعية · والذي سهل قيام بورجوازية بيروتية اصيلة كون سكانها من طائفتي السنة والروم الملكيين المتنعمتين بخيرات الباب العالي والمتعاونتين الى حد كبير معه ، والمتماسكتين مذ مطلع الخلافة الاموية الدمشقية ·

وهكذا برزت اقلية سنية ـ ملكية في مختلف المدن العربية الشرقية تتحكم بمظاهر الحياة البورجوازية وتبحث عن الوسيلة الاحسن لتركيز وضعها الاقتصادي ان بالتعاون مع العثمانيين ام بالتعاون مع الغرب · وهذا ما يسمى اجمالا بعهد النهضة اي بقيام الحركات الوطنية البورجوازية في العالم العربي · وليس من مثال افضل على تعاظم دور بيروت في النصف الثاني من القرن الماضي كقيام اول جمعية عروبية سرية حوالي سنة ١٨٥٥ في الرعيل الاول من خريجي المعهد البروتستانتي · وبالحقيقة فان هؤلاء البورجوازيين كانوا في معظمهم يفضلون الغرب على العثمانيين وهم في ذلك يشبهون الى حد بعيد التقنوقراطيين الشباب في لبنان الذين يقرأون الايكونوميست والاكسبرس (٣) ·

والذي قوّى مركز بيروت لم يكن في معظمه تجمعا من العناصر الخاصة بهذه المدنية · فقد حظيت بيروت منذ بدء القرن بعدة عناصر مكونة لطبقة بورجوازية أتت جميعا او في معظمها من الخارج مثلا كان الوجود الفرنسي المشجع للعنصر المسيحي يجعلها عاصمة المسيحية في الشرق العربي ويقوّي مركزها السياسي باختيارها عاصمة لبنان الجنرال غورو ومراكز للتعليم وبث الثقافة الفرنسية كما كانت منطلقا رئيسيا للحملات الاستعمارية الفرنسية أيا كان شكلها · ثم ان القضية الفلسطينية وقيام الحكم الصهيوني في فلسطين حمل الى لبنان الآلاف من المهاجرين الذين فقدوا كل شيء ولكن ايضا العشرات ممن حملوا بعض الشهادات ان لم يكن بعض المال كمؤسسي مصرف انترا مثلا كما عظم دور بيروت في المنطقة كباب للداخل العربي بعدما اقفلت الموانىء التي الى جنوبها ·

ولكن العنصر الاساسي في هذا التطور كان قيام الاحكام الوطنية في مصر وسوريا والعراق وهي انظمة حاولت التقرب من بعض مظاهر الاشتراكية كما انها وصلت في بعض الاحيان الى اعتمادها فعلا · وكان من جراء ذلك ان استقبلت بيروت جاليات بورجوازية كبيرة أتت من القاهرة والاسكندرية وبورسعيد

---

(٣) لم يكن مستحيلا ان تنشأ مع هذه الحركة الوطنية البورجوازية تيارات علمانية · كما انه كان ممكنا للغاية ان تمتد ايديولوجية الثورة الفرنسية، البورجوازية والعلمانية ، ايديولوجية الجمهورية الثالثة وجمهورية واشنطن ، الى الحركة البورجوازية المحلية · ولكن المانع الاكبر لهذا التطور كان طبعا ويزال مصلحة القوات الاستعمارية في تفتيت الوحدة الوطنية · وكان طبيعيا ان تتجه الحركة البورجوازية العروبية (اي الانتي تركية) الى العلمانية نظرا الى تركيبها المتعدد لديانات والى رفضها لايديولوجية السيطرة التركية على البلدان العربية والقائمة اساسا على انتقال الخلافة الى اسطنبول · ولكن الحركة البورجوازية لم تكن لتكون بنية تامة الاستقلال لكي تفرض ايديولوجيتها · كانت ، رغما عنها، عميلة · وليس أجمل من رؤية الجمهورية الثالثة في فرنسا ، المشهور بعدائها للكنيسة تشجع قيام الحركة المارونية في لبنان وتدعم بكركي ·

ودمشق وحلب · وانصهرت هذه الجاليات مع الجالية الفلسطينية البورجوازية الانكليزية اللكنة ومع الاقلية السنية ـ الارثوذكسية الاصلية لتكوين بوتقة واحدة عرفت كيف تجعل من بيروت مركزا لتجمع الاموال وللفوز بالعقود الكبرى ·

في هذا الوقت برزت بيروت كعاصمة لبلد صغير مستقل · وسرعان ما سيطرت على السلطة فيه فئات قد هيأتها للحكم ان لم تكن زعاماتها القبلية ـ الطائفية السابقة ، تعاملها مع السلطة العثمانية او من بعدها مع الفرنسي · ونشأ في هذا البلد بتأييد من البورجوازية التي كانت في طور التماسك البدائي وبضغط من الرأسمال الاجنبي نظام حكم عرف بالديموقراطية الليبرالية · ولكنه يؤدي بالحقيقة على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي الى حماية مصالح من لهم ، والسماح لمن له بأن يكون له اكثر · وابرز ما نتميز به اليوم هو فوضى التشريع في المجال الاقتصادي وغموضه وتشعبه ونقصانه · وقد ساعدت السرية المصرفية على قيام رأسمال متحرر من عين الحسود ومن مراقبة مفتش الضرائب · كما سمح نظام الاستيراد والتجارة بقيام تروستات رهيبة تتحكم بالسلع الاساسية فتجني على أساسها الارباح الطائلة ولا من مشترع ولا من قاض · هي ليست رأسمالية ، هي الفوضى التي لا تخدم الا المالك وبدون حدود (٤) ·

تجمّع هذه العناصر خلق الفئة المسماة بورجوازية بيروت وقوّى شأنها وجعلها تسيطر شيئا فشيئا على الاقتصاد اللبناني الناشىء ومن خلاله على السلطة في شكليها السياسي والطائفي · ومع قيام هذه الفئة نشأت ايديولوجيتها الخاصة التي تبثها صحفها وفنانوها وكتّابها والتي تمر في كلام اساتذتها وصالوناتها · ومن خلال السيطرة على نواحي السلطة تمكنت هذه الفئة من بث ايديولوجيتها التي امست ايديولوجية الموظف الصغير التعس الذي يعيش في غرفة ضيقة رطبة في الدكوانة مفضلا اياها على رحابة المنزل القروي لانه يقاسم رب العمل لا ماله بل ايديولوجيته ويسعى يوميا لتقلده وللتمثل به · وما ان تنطلق موضة سيارة ام ثياب ام كلام ام فنون في بيروت حتى ترى آثارها في نواحي الرقعة اللبنانية الصغيرة ولدى جميع الفئات · وهكذا فان خياطة البنطلون المعروض في شارع الحمراء تنقل بظرف ساعات الى شارع اراكس في برج حمود حيث يظهر بنطلون في خياطة مماثلة ولو كان القماش مختلفا · واطلقت هذه الفئة الصحافة في لبنان بشكلها الحاضر واصبح من يصدر مطبوعة يهمه اولا ان ينقل ما يفعله جاره واطلقت الشعر الطويل ثم اللحى والموتوسيكل والسيارات السريعة والسباحة في اللونغ بيتش (٥)·

وككل بورجوازية مستقرة ، افرزت البورجوازية اللبنانية اخلاقية وثقافة · وهما ، بالنهاية جانبان اساسيان من الايديولوجية ، وهما الجانبان اللذان يهمانا مباشرة · طبعا اساس وجود البورجوازية سيطرتها على وسائل كسب المال · واساس انتشار ايديولوجيتها في الفئات المحرومة اقتصاديا كونها في مركز تستطيع معه ان تفرض طريقة معينة حتى على قوم لا يقدرون على الطريقة هذه · وقد تقوم ازمات وازمات في وجه الاستقرار الاقتصادي الوهمي في لبنان · ولكن الاخلاقية البورجوازية والثقافة البورجوازية تمران بصورة اكثر عمقا واقوى مفعولا· وعلينا ان كنا ثوريين حقيقيين ان نبدأ بهدم رأسمال البورجوازية ومعه كل ما افرزته حتى اليوم ايديولوجيته (٦) ·

---

(٤) من هنا تماسك حقيقتين اساسيتين : النظام الرأس مالي من جهة والكيان اللبناني من جهة ثانية · ومن هنا اذن وحدة النضال ضد هذين الجانبين للحقيقة الواحدة ·

(٥) وبدأت القرى اللبنانية تظهر من جراء هذا التوسع البورجوازي ، واحدة بعد الاخرى ، مقرفة مقرفة ويزيد قرفها بقدر ما تظهر « محاسنها السياحية » لاولاد المدن تماما كساكنات حي الصيفي ·· آه يا قريتي ، لم تعد رؤيتك تحمل الا تحت ثلج الكوانين ···

(٦) الى وحدة النتاج الثقافي البورجوازي في لبنان لنا عودة مطولة ·

٣ ـ عن الاخلاق

١٢ شابة ، كل سنة ، يفتح خنجر أبوي أم أخوي طريقهن الى الآخرة ، غسلا للعار وتحصيلا للشرف ، هذا هو المعدل السنوي لجرائم الشرف في لبنان وهو لعمري محترم • الخطأ هو في اعطائه اية اهمية حقيقية • لان جريمة الشرف ، لا تعطي فكرة واضحة عن الاخلاق التي تسود اليوم في المجتمع اللبناني • جرائم الشرف ، ولو تعدت المئة والالف في السنة ، هامشية ، جانبية ، رمزية • هي طلل من رواسب ماض لم يكن ليبقى• هي شاهد الزوال هي اللاشيء• ولو ملكنا الحزن لوفاة الاثنتي عشرة • لان جرائم الشرف حصيلة ايام لم يلد منها الحاضر ولانها ، ولو بقيت كالنتوء في الحائط الاملس ، لا تدل الا على نفسها • ليست جريمة الشرف دلالة ، هي شيء•

كيف تبحث اخلاق لبنان اليوم ؟ لتحليل كل ظاهرة طريقان : من الفكرة الى ظاهراتها او من الدلالات الى المشار اليه • غيبي ، ميتافيزيائي ، كل تحليل آت من عل ، من الفكرة ، من الخارج ، من فوق ، من الآلهة • علمي ، حقيقي ، التحليل المنطلق من الظواهر الحسية ، في شكليتها • فالمعنى من خلال الشكل • لا بل ان في الشكل المعنى في الدال فحواه • ولا حقيقة في النهاية الا للشكل ـ المعنى في وحدته • جريمة الشرف ليست شكلا كاملا لان لا معنى لها ، تسير في اتجاه معاكس لاتجاه الوحدة المجتمعية اللبنانية • دلالات الاخلاق اللبنانية ليست هنا •

ولكني قبلا اود ان اعبر عن رغبتي القديمة قدم رفضي في الكلام عن الاخلاق • مذ بدأت الاسئلة تطرح ذاتها عليّ وانا اتساءل : من نصّب بعض هؤلاء المتكلمين عن المنابر أوصياء على الاخلاق ؟ من سمح لهذا بتوبيخي ، لذاك بوعظي ، لذلك بتأديبي ؟ الى اية قواعد يستند رب العائلة والاستاذ ورجل الدين في تلقيني مبادىء الاخلاق • ان اتكلم عن الاخلاق جواب مني لهؤلاء جميعا • وكلامي قبل كل شيء تحرر من دوغماتيتهم الغيبية، وفي بعض الاحيان، من غبائهم المطبق •

لان ما قالوه لي ما نفعني شيئا يوم واجهت الحياة • لانني وجدت اخلاقهم انعدام اخلاق ولانني بدأت ابحث مع اصدقاء لي عن اخلاق جديدة ، ووجدت ان ما ابحث عنه نقيض ما علموني ، وعكس ما قالوا لي • يوميا ، في لبنان وفي خارجه ، تساؤلنا الاعمق والاكثر احراجا ، تساؤلنا الذي يأخذ من تفكيرنا الكثير ، عن الاخلاق التي نود ان تكون اخلاقنا •

لاننا ملتزمون • ولاننا نحاول ان نكون غير دوغماتيين • ولاننا قطعنا مع حداثتنا مرحلة الرفض البدائي البورجوازي ، مرحلة الرفض الاوديبي الاولي ولاننا نريد ان نبني على انقاض الاخلاق البورجوازية التي يريدوننا ان نقبل ، ميراثا ، حملا وقيدا ، اخلاقا نستنبطها من بحثنا اليوم عن المصالحة مع انفسنا ، عن الصدق ، عن السلام وعن المحبة • كلمات كبيرة ؟ ربما انما هي قدر آمالنا الثورية • ووسع انفتاحنا على الحقيقة وثبات نيتنا على التغيير •

هذا الكلام هو تحرر وهو دعوة • دعوة لجميع الذين يهمهم بناء اخلاقية جديدة لكي نعمل معا على بنيانها وهو دعوة لهؤلاء لانتزاع حق الكلام عن الاخلاق من الذين نصبوا انفسهم حراسا لقواعد بالية لا تصلح الا لقزم تساؤلاتهم اليومية السخيفة •

ان نحن نظرنا الى الاخلاق بمعناها الاوسع وجدناها متصلة بعبارات مختلفة كالكياسة وقواعد الحياة في المجتمع ، والدين • الفكرة التي تطرح نفسها اولا هي ان الاخلاق عكس الثورة ونقيضها • لان الثورة تجديد ولان الاخلاق تبدو وكأنها احتفاظ بماض ومحافظة عليه• الحقيقة ان للثورة اخلاقيتها• والحقيقة ان ما يجمعني بالعديد من الملتزمين سياسيا أم اجتماعيا ، كوننا نحاول معا ان نجد التعبير الحسي اليومي لالتزامنا الديني ام السياسي ، ام الاجتماعي •

اليوم ، اجدها محنطة الوصايا ، وصايا الله ووصايا الكنيسة • ولكنني اضحك ملء شدقي عندما اتذكر كتب « الاخلاق » التي تضعها وزارة التربية الوطنية الجليلة بين ايدي اساتذة التعليم الرسمي • كنت اودّ لو أعدنا قراءتها لتبيان الايديولوجية الرجعية التي تكتنفها • اسوأ ما في « الاخلاق » كما تظهر في كتب التعليم الديني وفي كتب «الاخلاق» انها جارورية وكأنّ لكل سؤال على هذه الارض جوابا • تفتح جرار الزنى فيأتيك القانون الجزائي الديني صارما في عقابه جهنم الحمراء • ولن انسى طاعة الله والكنيسة والوالدين • وطاعة امبراطور بيزنطية العظيم كما تطلبها منا قداديس الطقس البيزنطي • لكل اثم جرار عقاب • لكل حالة حل ، شكرا للمافوقيين ، قديسين أم لا •

أأمزج كل شيء ؟ لا ولكنني اتساءل مع الكثيرين لماذا يجب علينا ان نعلق قواعد حياتنا اليومية بقواعد ماورائية • لماذا استنباط الاخلاق من اقوال الآلهة ؟ ارفض اخلاق اجدادي في طبيعتها الماورائية اولا أي في منطلقها الديني •

على كل حال ، فاني أبدو في كلامي هذا دون كيشوتيا • فلننظر هنا وهناك وهنالك ، هل الاخلاقية البورجوازية ذات مصدر ديني ؟ يا ليتها كانت • ان اخلاقيتهم التي علموني والتي ارفض هي عكس الدين ورفضه ومحوه وانعدامه • هي اللادين ، هي انبعاث كريه من تجمع عناصر اقتصادية واجتماعية تثبت سيطرة فئة المالكين على فئات الذين ليس لهم غير عملهم • اليوم في بيروت، ان انت بحثت في اصل السلالات لرأيت انها واحدة لهذا المصرفي الكبير واذلك العامل • ليس من ارستقراطية في لبنان والارستقراطية التي كانت تحولت الى جزء من البورجوازية المستجدة او اضمحلت • لذلك فالدم والعائلة وما اليهما من مخلفات الماضي ليست قادرة على تمييز الفئة البورجوازية ، على وضعها على نصب خاص لكي يتسنى لغيرها مشاهدتها والتأوه عجبا واطراء • من هنا قيمة الشيء الظاهر ، قيمة النتوء في الحائط• لان انعدام السلالة وقرب التاريخ لا يسمحان الا للقلائل بالتمتع بصيت بورجوازي اكيد • اما الآخرون ، اولئك الذين جمعوا بعض المال من هنا وهناك بطريقة وبأخرى ، فعليهم ان يدفعوا ، لكي يظهروا الفرق بينهم وبين اولئك الذين لم يجنوا اموالا •

من هنا اهمية المظهر ، اهمية الشيء الخارجي• لست ادري ان كانت نسبة السيارات الاميركية كبيرة في بلد ما قدر ما هي في بيروت • اقتناء السيارة الفخمة ، الاميركية دليل البزخ والترف • في منطقة تحيا فيها بورجوازيات ضيقة صغيرة ، وحيث قل عدد المغتربين الاثرياء الذين عادوا ، فربما سيارة البيجو هي التي تدل الى الدخول في السلك • والجواهر ، والثياب ، والرحلات الى باريس والى سائر عواصم اوروبا ، وتشييد الفيلات ، والسمار البرونزي على البحر ••• مجتمع مركنتيلي يعيش كالغراب ، يقلد الغرب الذي يهزأ منه ومن حركاته السخيفة ويضحك ملء شدقيه • يتساءلون عند رؤيتنا : لماذا همهم اظهار كل ما لديهم ؟ وهذا هو الفرق الاساسي بين البورجوازية الحقيقية وبورجوازيتنا الصغيرة المستقرة •

فالبورجوازي الحقيقي يعرف كيف يبرز شخصيته البورجوازية الحقيقية • ولكن البورجوازي الحديث لم يملك بعد الطريقة او المال الكافي لكي يسمح لنفسه بتصرفات بورجوازية دلالتها في تتابعها وليس فيها • البورجوازي الحديث دأبه أن يقلد من الصباح حتى المساء ••• يقرأ الجرائد الفرنسية •• ويسجل ابناءه لدى الراهبات ، يضني نفسه لكي يبتاع لهم الثياب الثمينة واللعب الغالية الغالية • قد يملك هذا البورجوازي المال الكافي بينما لا يملك كيفية التصرف به ، وهذه حال مغتربينا العائدين • مضحك مظهر هؤلاء المغتربين حقا ، مضحك • عقلية رجعية استعمارية ، عقلية فاشية جاهلة اذ لا علم به يتباهون

ولا شيء • سوى المال الذي جمعوه ولا يدرون كيف يجب ان يصرفوه ؟ يعتقدون انه بالمال يستطيعون ان يدخلوا المجتمع البيروتي البورجوازي • فترى واحدهم يقتني السيارة الاكبر والآخر يحاول ان يتزوج المطربة الكبيرة المعروفة وثالثهم يقدم تبرعا لجمعية خيرية ويسعى بمبلغ اكبر الى تذكير الناس بما قدمه بنشر اسمه في الصحف وفي المجلات ••• عندما كنت في التلفزيون كان يدهشني عدد المغتربين الذين يدفعون اموالا باهظة لحجز بعض الدقائق يظهرون من خلالها على الشاشة بمناسبة زواج ابنهم من ابنة احد الزعماء او افتتاح فرع لمصرف خاصتهم لست ادري ان كان أثّر في اخلاقية مجتمعنا شيء كهؤلاء المغتربين العائدين باموالهم اعتقادا انهم سيصلون • ولكن الى أين ؟ كلهم يعلمون ان جواز السفر الى البورجوازية هو المال والمال فقط • من هنا هذا التسابق الاحمق لجمع مال ولا يهم من اين اتى •• ما زال حتى اليوم يجرحني تساؤل قوم عن وزن شهادتي تلك بالليرات • ما هو العمل الذي يجده حامل اجازة الحقوق او الآداب او العلوم وكم يقبض ؟ وكأننا نتعلم لكي نحصل على وسيلة لجمع المال او كما يقولون كياسة ، لجمع المادة • ولكن التعلم ، لطوله ولاسباب اخرى ، ليس وسيلة ممتازة لجمع المال الا في بعض الحالات النادرة • وهكذا تنتشر في مجتمعنا اخبار عن المهن المرغوب فيها : طب الاسنان مثلا ، الهندسة لسنوات خلت او الطب على كل حال • تدهشني وصولية طلاب الطب في بيروت وفي باريس • تراهم يدرسون يدرسون لكي يحصلوا على الشهادة التي تخولهم جمع المال • متى نوقف تكالب اصحاب المستشفيات والاختصاصيين وامثالهم ؟ وفي بعض الجماعات البورجوازية الصغيرة الممتازة قدر ما هي بورجوازية وقدر ما هي صغيرة (كجونيه مثلا) تسمع اجمالا في العائلات ان فلانا التحق بمدرسة الطب اما الآخر (فيا حرام) فانه « يعمل ليسانس » دون تحديد المادة فليس ذلك مهما لان المذكور ، دون اي شك حاول الدخول الى الكليات التي تكوّن جوازات سفر الى المال وفشل اذاك ، دخل كلية آداب ام علوم لكي لا يفقد تماما مستقبله • وهكذا فان هناك مدارس بورجوازية وجامعات بورجوازية وسيارات بورجوازية وربطات عنق بورجوازية واحياء بورجوازية • ويحاول الموظف الصغير ان يحصل بقدر استطاعته على اكبر عدد ممكن من هذه الاشارات الخارجية الدالة على انتمائه • فقد يمكنه اشتراء ربطة العنق دون السيارة ، او ارسال اولاده في الثانوية البورجوازية دون تسجيلهم في الجامعة البورجوازية ••• والبورجوازي السعيد هو الجامع العدد الاكبر من هذه الاشارات •

وليس نادرا ان يتوّج البورجوازي السعيد انتماءه بصلاة شكر الى الله الذي سمح له بصعود السلم الاجتماعي فيبني له مزارا في املاكه البقاعية او يساهم ببنيان كنيسة بشرط ان يرى تحت الصورة الايطالية البلهاء انه قدمها • وهكذا يدخل التدين الطائفي عنصرا اساسيا في تكوين هذه الاخلاق • ويسمح ارباب الطوائف لهؤلاء بتحسين اوضاع ضمائرهم فيما يخص كل الممنوعات التي قاموا بها في اثناء تحصيلهم المتفاني لمالهم • وتبدو المؤسسة الطائفية ككل عنصرا اساسيا في تكوين وفي استقرار الاخلاقية البورجوازية • فلا التهافت على المال ولا حتى اللعب بالقوانين ولا التهريب ولا التزوير ولا استعباد العمال اشياء يصنفها اخلاقيو الطائفية عاطلة • وتسمح الاجتماعات الدينية الى ذلك باظهار المال المنصبّ في الصينية والثياب طبعا • وقداديس الاحد تبدو في معظم الاحيان مناسبة ممتازة لعرض الازياء • اما الوصولية بأي ثمن التي تتميز بها الاخلاقية البورجوازية فليست شيئا ممنوعا لانني ، ان كانت ذاكرتي تخونني ، لم اجدها لا بين وصايا الله ولا في عداد وصايا الكنيسة • ويساهم رجال الدين الطائفي انفسهم في استقرار عناصر الاخلاقية البورجوازية فيهتمون اهتماما خاصا بمظهرهم وبظهورهم • والمهم لاراحة الضمير اشعال ٧ شمعات، لست ادري في اي عيد ، وتقديم بعض الحسنات للشحاذ الذي يرابط امام باب الكنيسة منتظرا خروج

الذين تمتموا كالببغاء بعض الكلمات المعصورة ، غالبا في لغة اجنبية ، بينما هم يفكرون بلست ادري اية « ضربية » ·

وليس اجمل من حريصا · حريصا تدهش بشمولها جميع عناصر الخلقية البورجوازية · وجود حريصا نفسه اهانة لانه المزار لانه تشييء للعاطفة الدينية : الدين = حريصا · زيارة حريصا = الحصول على بعض مكاسب حتى من الدين ·

وتذهب العائلة السعيدة في سيارتها الفخمة · الربيع جميل وفي العودة نتناول بوظة على الاوتوستراد · الغداء : يجب ان نحتسي كاس عرق في اي مكان في الجبل · وسيارات تخاطف الطريق والحر شديد لاهب · هل من الضرورة ان نذهب الى حريصا ؟ لا يجب ان نذهب الى البحر لان الاطفال يفضلون ذلك · لكن السيدة ووالدتها تريدان زيارة العذراء · ليكن ايضا ذلك · حر على الطريق · من جونيه الى حريصا ، ذلك الاحد ، ساعات · ما اجمله فيلم فيليني عن ذلك المزار الايطالي · هل زار فليني حريصا في شهر ايار ؟ لا ؟ يجب ان يزورها · وصلنا، لا مكان للوقوف · نوقف بعيدا · نحسّن الهندام قبل النزول من السيارة · ننزل · البحر جميل من علو ٦٠٠ متر · والوقوف في الظل مستساغ · قداس امام الكنيسة · ابانا الذي في السماوات ··· بيبسي كولا ·· السلام عليك يا مريم ··· الساحر المدهش · مهرجان كبير حريصا في ايار · آسف لاني اكتبه وانا اود تصويره على طريقة فليني السحرية · وعلى ذكر السحر فان مدينة الملاهي على بعد خطوات · الاولاد يلحون بالذهاب الى مدينة الملاهي حيث العنزيقة والساحر الكبير · لا · تقول السيدة بعد القداس · السيدة هي وصلت الى باب المزار · فكرت بعض الوقت · هل تخلع حذاءها · خلعته ، مشت حافية لوجه الله · اشترت تمثال العذراء · من يبيع هناك الصور ؟ هل صحيح ان الكاتدرائية التي تبنى ستكلف ٦ ملايين ليرة ؟ من اين كل هذا المال · المنطقة بحاجة الى مستشفى الى مدرسة ، الى ملجأ ولا سيما الجنوب بحاجة الى حماية · لا · يجب تكريم العذراء · ثم من ناحية اخرى قد بدأت الاشادة وحرام نوقّف · وهناك الطائفة الفلانية التي بنت كنيسة كبيرة ظاهرة وهناك الطائفة الاخرى التي بنت ديرا · يجب بناء كنيسة على هذه التلة المقدسة حيث السفير البابوي والبطرك الفلاني · اليوم نضع ٥ ليرات في الصينية · مرة في السنة بسيطة ليس كثيرا على السيدة العذراء · ثم لا تنسَ عندما مرض الصغير وعدنا العذراء بزيارة وبتبرع · المرأة تتفحص ربطة عنق الرجل لانها شاهدت سيدة تعرفها · تضع سكربينتها من تحت لتحت لان السيدة لم تخلع سكربينتها · الاولاد يلعبون نرسل الخادمة لكي تنتبه عليهم · يجب الا يقعوا · يا حرام اعمى اخرس · لننتظر العجائب · تبرعوا بحجر للكنيسة · نتبرع مرة ثانية · بسيطة مرة واحدة في السنة · وذلك الزعيم اتى الى هنا الاحد الماضي · يجب ان نأتي · كل الناس أتوا · وعظته طويلة هذا الخوري · الاعتراف على الشمال · سريع سريع ··· نذهب في نزهة بعد العذراء الساحرة · الساحر الكبير الذي يتكلم عشر لغات ويبلع السكاكين ··· نزهة في الجبل · غداً في العمل سنقول : ذهبنا الى حريصا وأكلنا بوظة في عودتنا على الاوتوستراد ··· استأجرت بيتا للصيفية ؟

يكفي ·

غسان سلامه
باريس ٦ـ٩ أيار ١٩٧٤